السيميائية بين إرهاصات الامتداد وواقع الوجود

ناسية عادل

جامعة بجاية

nassiaadel87@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2018-02-19	2018-05-28	2018-06-26

ملخص البحث

إنّ السيميائية كأي علم من العلوم التي ظهرت في الغرب تنسب لا محالة إلى الإغريق اعتزازا وافتخارا منهم بعراقة علومهم، وللضرورة بما كان أن يبدأ هذا العلم رحلته من الإغريق واليونان امتدادا له في مختلف العصور؛ ليصل إلى ما هو عليه من تقدم وتطور في يومنا هذا؛ مع اختلاف وجهات النظر إليها باختلاف المذاهب والإيديولوجيات، فهي كما تصورها العرب في منهجيتها جاء من السّحر والكهانة والعرافة والطب والفراسة... لم يبتعد الغرب عن هذا المنحى خاصة في عصرها الحالي التي تقترب من هذه الجوانب أكثر.

المصطلحات المفاتيح: السيميائية . العلم . العلامة (الدال والمدلول) . الأصول والامتداد.

Résumé

La sémiotique, à l'instar des autres disciplines qui ont émergé en occident, est attribuée inévitablement au mérite de la science grecque. La genèse de cette discipline remonte donc à l'époque grecque tout en passant par d'autres époques pour connaitre le progrès et le développement qu'elle vit aujourd'hui. En effet, des vues divergentes sont portées sur ces disciplines par les différentes doctrines et idéologies. Les arabes, eux, considèrent que la méthodologie sémiotique soit issue de la magie, de cartomancie, de la divination, de la médecine et de la physionomie… Cette tendance continue à connaitre son essor de plus en plus à l'époque actuelle.

Mots clés : sémiotique - la science - le signe (signifiant et signifie) - les origine et l'existant.

إنّ السيميائية علم ظهر في بداية القرن العشرين كعلم ذو قوانين ومفاهيم خاصة منبثقة عموما من المنطق والرياضيات... لكن سرعان ما اكتسح مجالات لم يسبقه أحد إليها بفعل انفتاحه على أفق واسعة الاطلاع، وذلك لكون "السيمياء ترصد الجوانب الشكلية العامة لجميع العلامات، ومن ثم يرتسم طابعها الموسوعي الذي جعلها تكتسح جميع المجالات والعلوم"[1]. وللضرورة بما كان أن تكون لها الريادة في العصر الحديث والمعاصر؛ لكن لم تصل إلى ما هي عليه إلاّ بعدما قطعت أشواطا تراوحت بين التأمل والمحاورة والتطبيق ثم الامتداد في مختلف الثقافات إلى أن وصل وجودها الفعلي إلى التفاعل التكنولوجي المعاصر.

بداية ذي بدء نقرّ أنّ علم العلامات عند الإغريق ارتبط بالطب في بداياته، أين نجد الطبيب الفيلسوف اليوناني جالينوس (Galenos) (129 . 200) له إسهامات سيميائية حين قال:" ثم إنّ أصحاب الرأي والقياس يأخذون من تلك الأعراض دلائل على السبب، ويستخرجون من علم السبب العلاج والمداواة"[2] وفي موضع آخر يقول عن الظاهر:"إنّما هو أن يستدل عليها بعلامات"[3]، إذا انطلاقا من العرض الذي يظهر على الإنسان نبحث عن السبب من أجل علاجه. أما اليونان؛ فكان التواصل الشفهي من الأساليب التي ميّزت هؤلاء؛ حيث ظهر مصطلح أدى هذا الدور من سقراط مرورا بأفلاطون وصولا إلى أرسطو، وهو "المحاورات"؛ فهو نوع من أنواع الكتابة نجد فيها فنونا ثلاثة مؤلفة بمقادير متفاوتة هي الدراما والمناقشة والشرح المرسل[4]. انطلاقا من هذا الكلام يمكن أن نتصور أو نقترب أكثر إلى مدلول المحاورة الأفلاطونية أو المحاورات بصفة عامة؛ أين يكمن أساسها في طرح قضية جدلية تحتاج إلى مناقشة[5] وتحليل، وهي مناقشة تتم بين اثنين أو أكثر أو حتى بين النفس وصاحبها، والتي تتمتع بالحوار القويم، ويتخللها نوع من الدراما؛ أي بعض المؤثرات غير اللفظية، لقد جرت محاورات بين أفلاطون وميلزوجين حول نشأة اللّغة هل هي إلهام أم اصطلاح؟ وكانت مجمل أفكارهم المطروحة تناقش بشكل جدليّ[6]؛ إذ يدافع كلّ طرف عن رأيه، ومثل هذه النقاشات الفلسفية التي توحي إلى الفكر المعمق قد أثرت في الفكر البشري ككلّ. وهي كلّها نقاشات حول العلامات والتي يطلق عليها اسم "كراتيل"[7]. إذا نصل إلى أنّ أفلاطون عمد إلى التواصل من أجل كشف أسرار المعرفة والفلسفة. لكن أفلاطون يستبعد كلّ البعد المكتوب من مجال اهتماماته؛ ليصبّ جلّ انشغالاته على "التّخاطب الشخصي"[8]؛ حيث عمد إلى الحوار الهادف "الجدل"[9] والمتوجه نحو المعرفة التي تتحدد في أربعة أنواع هي "الأوّل الإحساس وهو إدراك عوارض الأجسام أو أشباحها في اليقظة وصورها في المنام، الثاني الظن وهو الحكم على المحسوسات بما هي كذلك. والثالث الاستدلال وهو علم الماهيات الرياضية المتحققة في المحسوسات، والرابع هو التعقل وهو إدراك الماهيات المجردة من كلّ مادة"[10]، وهو الانتقال من الجزء إلى الكلّ أو من المحسوس إلى المجرد ويمكن توضيح ذلك عبر مخطط تواصلي:

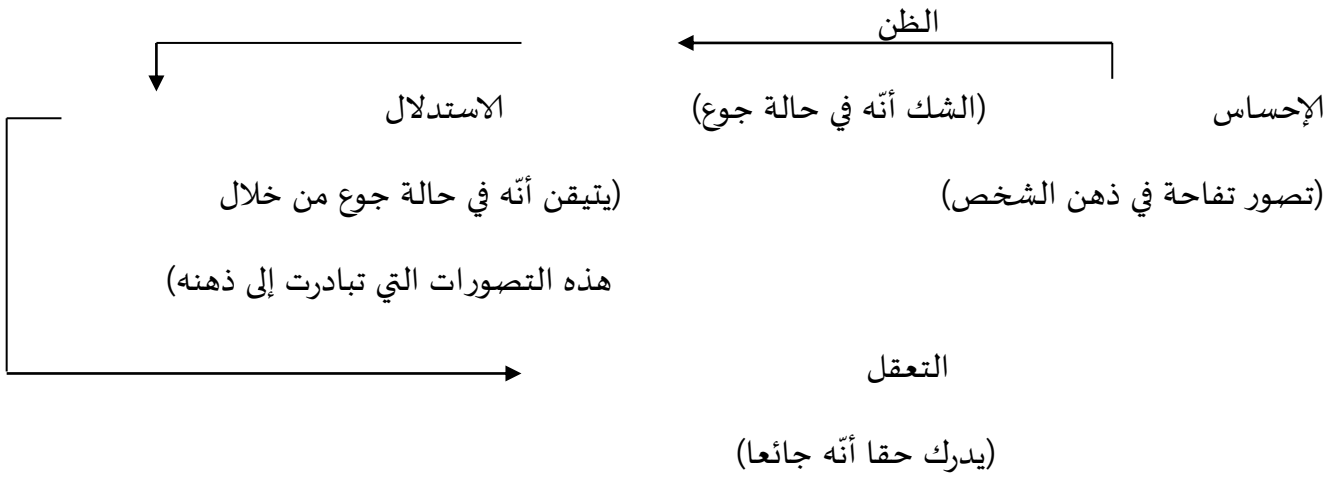

لم يتوقف الأمر على التواصل اللّغوي؛ إنّما يتعداه إلى التواصل غير اللّغوي؛ حيث أنّ الإيماءات وبعض الفنون الجميلة تعدّ من أساليب التواصل والتعلم وحتى الإثارة. كما يرى أنّ الدليل اللّغوي ثلاثي الأطراف يقول:" أي أنّ الدليل اللّغوي بحكم طابعه الرمزي يتضمن بالضرورة إحالة ذات طبيعة ثلاثية: إحالة إلى مثال مجرد ذي طبيعة مطلقة وإحالة إلى الواقع، وإحالة إلى تصوّر أو وجهة نظر، كما أنّ أيّ قراءة إما تدعي أنّها تقرأ المطلق وتعبّر عنه أو... تتطابق مع التجربة والوقائع والموجودات أو نكتفي بالاعتراف بأنّها تعبّر فقط إلاّ عن وجهة نظر واحدة ممكنة"[11]؛ أي أنّ الدليل اللّغوي كان ثلاثيا يتكون من المثال والواقع والمرجع. لكن تبقى هذه العناصر مرتبطة دائما بما يعرف بالقراءة والعملية التأويلية؛ أي أنّ هذه الأخيرة قد تكون مطلقة أو واقعية أو أنّها تحيل إلى تصور معين عن وجهة نظر معينة.

الرواقيون (Stoïciens) ظهر هؤلاء في القرن الثالث قبل الميلاد بعد أرسطو بقرن من الزمان، ليقدموا أمورا جديدة في الفلسفة اليونانية وأهم تلك النقاط ظهور مصطلح العلامة عندهم من جهة، وقالوا بأنّ العلامة لها وجهين دال ومدلول من جهة أخرى[12]؛ ليؤكد أمبرتو إيكو هذا الشيء حين قال إنّ الأمازيغ هم السباقين إلى اكتشاف الفرق بين الدال والمدلول انطلاقا من التجربة اللّغوية التي عاشها هؤلاء، والتي لم يعشها اليونان أنفسهم، وذلك راجع لا محالة إلى التطورات التي عاشوها في الحياة، فالأصل هؤلاء من الكنعان، فنزحوا إلى شمال إفريقيا ثم انتقل البعض منهم إلى أثينا، تكمن هذه التجربة في الازدواج اللّغوي من خلال ثلاث لغات هي: الكنعانية البونيقية، والأمازيغية، واليونانية، وكذا الازدواج الثقافي والحضاري[13]؛ لذا نجد أنّ مفهوم العلامة عند هؤلاء قد تجسد انطلاقا من علاقة الكلمات والأشياء التي تعنيها في العالم الخارجي؛ أي أنّ هؤلاء قد ميزوا بين ثلاثة عناصر في وجود كلّ علامة:" فالعلامة تجمع بين ثلاثة عناصر: مضمون العلامة، العلامة، وما هو موجود فعليا... وميّزوا بعد ذلك بين العناصر النفسية وغير النفسية. فالصوت والشيء محسوسان، أما مضمون العلامة، وهو ما يتطابق مع المدلول السوسيري، فنفسي لأنّه صورة مجردة عن الشيء"[14]؛ إذا للعلامة أبعاد ثلاثة: العلامة أو الشيء الذي تحيل عليه، ومضمون هذا الشيء، وما يحيل عليه في العالم الخارجي. كما أنّ " المنطق جزء لا يتجزأ من الفلسفة وتتمثل وظيفته في البحث عن العلل التي تنسجم بها الطبيعة بدل الوقوف على قوانينها فقط"[15]؛ لذا كان لديهم

الاستدلال أساس التفكير المنطقي، ومن هؤلاء استمد شارل سندرس بورس مبدأ الاستدلال في التفكير حيث صاغه بعيدا عن التجريد كما فعل تماما الرواقيون.

يتواصل الاهتمام بالعلامات؛ حيث نجد في أوربا وبالتحديد في القرون الوسطى القديس الجزائري سانت أوغسطين (Saint – Augustin) "الذي اهتم بآليات المعنى في العلامات اللّغوية"[16]. كما أنّ السيميائيين عندما جعلوا منهج عملهم قائم على الإحالة والتأويل من دال إلى مدلول كان قد سبقهم بقرون القديس أوغسطين؛ حيث "يرتكز مفهوم أوغسطين للعلامة على "الكلمة" أو على الأصح إنّه يتجه نحو الاسم، ويتوزع على علاقته علامة/ مفهوم، وحتى يشتغل الشيء بوصفه علامة ينبغي للمؤول أن يدرك بأنّه علامة"[17]؛ أي أنّ تفسير شيء في الوجود وإن كان دالا بذاته على مفهوم، فإنّه بالضرورة يستدعي الفكر لمفاهيم أخرى منبثقة عنه. كما نجده يقدّم حدا للعلامة في علم الجدل، "فما أسماه بالكلمة verbum هو بمعنى الدال والصوت يقابل من جهة [dictio] هو مجموعة مكونة من الكلمة علامة وما يحدث في الذهن بوصفه أثرا للكلمة و[dictible] وهو ما يدركه الذهن في الكلمة، أي [المفهوم]، فالشيء لا يصبح علامة ما لم يحل على شيء آخر"[18]. إذا لا يمكن أن تكون العلامة علامة حسب أوغسطين إلاّ إذا كانت تحيل على شيء آخر، فالإحالة والتأويل هما من يؤكد على أنّ الشيء عبارة عن علامة. كما أنّ أوغسطين لم يتوقف عند التأويل؛ إنّما ربطه بالتواصل وذلك انطلاقا من تفحصه وتفسيره للنصوص المقدسة، فنظر إلى العلامة من وجهة علاقة اللّه بالعباد والوسيط الذي بينهما ألا وهو النّص المقدس؛ لذا انطلق في تشكيل نظرية حول التأويل النّصي ليؤكد فيها "على إطار الاتصال والتواصل والتوصيل عند معالجته لموضوع العلامة"[19]. إلى جانب هذا صنّف أوغسطين العلامات اللسانية وغير اللّسانية؛ حيث أعطى "الامتياز للعلامات المحمولة في الكلمات لكونها قادرة على تمثيل العلامات البصرية والسمعية وغيرها نظرا لتوافر الكلام على القدرة المنطقية والطاقة الحجاجية، وإن تعددت الألسن لدى البشر فالقواعد واحدة في كلّ اللغات من حيث جوهرها"[20]؛ إذا كانت الجهود الأوغسطينية هي التي منحت الأرضية التي انطلق منها دي سوسير في تفضيل اللسان عن باقي الأدوات التواصلية الأخرى.

أما الفيلسوف الألماني ليبنتز (Leibniz)، فقد خطى خطا مدروسة نحو الرمز ففي كتابه "فن التركيب" (De Arte Combinatoria) رسم مشروعا ضخما لتأسيس المنطق الرمزي الحديث. لقد سعى ليبنتز إلى توحيد النوع الإنساني من خلال توحيد جميع فروع المعرفة، وهذا الأمر جعله مقتنعا بضرورة وجود لغة كونية (رياضياتية)؛ يمكن أن يستعملها الجميع، تخضع لكتابة نمطية (langua caracteristicam) تتشكل من عدد قليل من العلامات، وتكون قادرة على تعيين جميع المفاهيم والتصورات والأفكار الممكنة"[21].

لقد اختفى مصطلح السيميائية منذ اليونان ليعود إلى الظهور في القرن السابع عشر مع الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (J. Locke)، تناول لوك موضوع اللّغة في كتابه " مقال في الفهم البشري" أين "صاغ تصورات اسمانية (Nominalisme) ترى أنّنا لا نصل إلى الماهية الحقيقية أو الطبيعية القصوى للأشياء، وبالتالي فإنّنا نعطي لهذه الأشياء "ماهية اسمية" اعتمادا على بعض خصائصها فقط. فمن الواضح أنّ لوك كان قد أشرع بابا واسعا

للسيمياء"[22]؛ إذا فقد استخدم لوك المصطلح ليعني به العلم الذي يهتم بدراسة الطرق والوسائط التي يحصل على معرفة نظام الفلسفة والأخلاق وتوصيل معرفتهما، ويكمن هدف هذا العلم في الاهتمام بطبيعة الدلائل التي يستعملها العقل بغية فهم الأشياء ونقل معرفته إلى الآخرين.

وفي القرن الثامن عشر ظهرت الموسوعة والموسوعيين مثل أعمال: فيكو، وديدرو، وكوندياك، ولايبنتيز الذي اعتبر سيميولوجيته في علاقة مع كلّ أجزاء النّسق بما فيها المقتضيات الفلسفية والوجودية والابستمولوجية لنظرة الدلائل؛ فقد تأثر هؤلاء كثيرا بفلسفة ديكارت ومالمبراش مما جعل جون لوك يعتقد بأنّ الفكر مثل اللّغة يتصف بالاعتباطية، وقد كانت له قصبات السّبق في ميلاد السيميائية تصورا ومصطلحا. ليأتي في القرن الثامن عشر دائما "كانط" متوسطا مبدأين مختلفين أولهما المثالية لبركلي (Birkly) والتجريبية مع هيوم (Hoyoum)؛ سعيا منه . كانط . التخفيف من المغالاة الذي ذهب فيه كلّ من بركلي وهيوم.

هكذا تواصل الاهتمام بالعلامة اللّغوية وغير اللّغوية مع مختلف المنطلقات والإيديولوجيات والمذاهب المختلفة إلى أن جاء فردينان دي سوسير (F. D. Saussure) الذي بنى نظرية لغوية ناضجة، فقد أحدث القطيعة على الدراسات التّطورية (Synchronique) ليعتمد في دراساته على الآنية (Diachronique) أكثر؛ أي دراسة حالة لسان ما. لكن لم ينطلق دي سوسير في بناء نظريته من العدم؛ لأنّه لا يوجد علم أو صناعة جاءت من العدم، فقد أقرّ وأكدّ مازن الوعر أنّه لا توجد نتيجة دون مقدمة تسبقها، هذا في قوله:" لا يوجد لاحق دون سابق"[23]؛ والدليل على ذلك هو أنّ سوسير انطلق من أفكار ومعطيات كانت موجودة عمل على بلورتها؛ حيث يخبرنا دانيال تشاندلر (. D Chandler) بأنّ رومان جاكبسون (R. Jakoubsan) قد أشار إلى أنّ الرواقيين سبقوا دي سوسير إلى التمييز بين الدال والمدلول[24]. لكن على عكس هؤلاء الذين سبقوه كانت دراسة اللّسان عنده علمية وأكثر شمولية؛ إذ تعتبر اللّغة أداة تبليغ وتواصل وهي ظاهرة اجتماعية[25]، وهي بذلك ليست فردية؛ أي أنّها غير مرتبطة بالفرد كفرد إنّما هي مجموعة من الأدلة تتواضع عليها الجماعة اللّغوية[26]، ليعتبر دي سوسير اللّسان بذلك "نظام من الدلائل يعبر عما للإنسان من أفكار. وهي في هذا شبيهة بالكتابة وبألفبائية الصم والبكم وبالطقوس الرمزية وصور آداب السلوك وبالإشارات الحربية وغيرها، إلاّ أنّ اللّغة أهم هذه الأنظمة جميعا"[27]؛ لذا انطلق دي سوسير في بناء نظريته اللّغوية هذه من تمييزه بين مصطلحات ثلاثة أكدّ على ضرورة الفصل والنظر فيها، وهي اللّسان (Langue) واللّغة (Langage) والكلام (Parole)، وبناءً عليه كانت إحدى ثنائياته (اللّسان / الكلام) ليقول عنهما:" [اللّسان] مجموعة من المواضعات يتبناها الكيان الاجتماعي، ليمكن الأفراد من ممارسة هذه الملكة؛ إذا أخذنا الكلام جملة بدا لنا متعدد الأشكال متباين المقومات موزعا في الآن نفسه بين ميادين متعددة بما فيها الفيزيائي والفيزيولوجي والنفسي، منتميا في الآن نفسه إلى ما هو فردي وإلى ما هو جماعي. ولا يتسنى لنا ترتيبه ضمن أي قسم من أقسام الظواهر البشرية لأننا لا نستطيع أن نستخرج وحداته"[28]؛ أي الكلام هو أداء فعليّ للغة تكون التأدية فردية شخصية للسان الذي يتميز بتأثير نفسي اجتماعي. إذن اللّسان هو الرصيد اللّغوي الذي يكون في ذهن الأشخاص الذين ينتمون إلى جماعة لغوية واحدة؛ أي أنّ هذا يتمّ بفعل مباشرتهم للكلام؛ إذ يعتبر وجوده وجودا تقديريا في

أذهان الأشخاص الذين ينتمون إلى جماعة لغوية واحدة، فغياب هذه الأخيرة يؤدي بالضرورة إلى عدم حدوث الكلام. فكان اللّسان موضوع دراسته؛ يؤكد على الأمر في قوله:" وواقع الأمر أنّ الوحدات المادية متى انتظمت على نسق معين هي التي أحدثت وحدها تلك القيمة. ويتعذر على المرء أن يُعمل فكره في حالة من حالات التركيبية إن هو لم يعتمد في ذلك على جملة من العناصر الملموسة. وفي الحقيقة فإنّ مجرد كوننا نفهم مركبا لغويا ما دليل على أنّ تلك العناصر المتتالية إنّما هي الصيغة المناسبة للتعبير عن الفكرة المقصودة"[29]؛ لذا أخذ العلم تسميته من موضوع الدراسة نفسها؛ يعني Linguistique بإضافة اللاحقة العلمية "tique" ليكون مصطلح "اللّسانيات" مقابلا عربيّا له؛ أي اللّسان زائد اللاحقة العلمية "ات" حسب عبد الرحمان الحاج صالح على شاكلة "الصوتيات" و"الرياضيات". أين عرّفها سوسير بأنّ: "اللسانيات تدرس اللّسان لذاته ومن أجل ذاته"[30]، ومن هنا ذهب إلى رفض وإقصاء الكلام من مجال عمله للضرورة؛ فهو نظر إلى العلامة اللّغوية دون العلامات الأخرى، فقد عرّف العلامة على أنّها كيان نفسي مكون من وجهين الدال (Signifié) والمدلول؛ فالأوّل هو الصورة السمعية (image acoustique) والثّاني هو الصورة الذهنية؛ أي المفهوم (Signifiant)، مستبعدا في ذلك المرجع أي الشيء الذي يحيل عليه في الواقع أو العالم الخارجي. لكن استبعاده للمرجع ليس من حيث أنّه لا يعرفه، فقد اعترف بوجوده. إنّما ليس له مكان في تحديده للعلامة مبررا هذا التّخلي والاستغناء أنّ العلامة لا تربط البتة بين الشيء والاسم ولكنها تربط بين الصورة السمعية والصورة الذهنية، كما أنّ الصورة السمعية لا تعدّ متوالية صوتية في العالم الخارجي؛ إنّما هي عبارة عن الأثر النفسي لها[31]. فحسبه، إدخال عنصر الكلام في نظريته يخرجه من دائرة الخاص إلى العام؛ أي يدخل عاملي الإبداع والتأويل، وهو يرفض الأمر. لكن لم يقل أنّ وجوده في علم آخر خطأ؛ إنّما دراسة الكلام ممكنة خارج دائرة اللّسانيات؛ إذ لم يهمل دراسة الكلام إلاّ لأنّه تتعدد صور تأديته. كما أكدّ على ضرورة وجود علم يهتم بالكلام ويكون هذا الأخير موضوعا له، وهذا ما نستشفه من قول سوسير:" من الممكن أن نتصور علما يدرس حياة الدلائل في صلب الحياة الاجتماعية، وقد يكون قسما من علم النفس العام. ونقترح تسميته "Sémiologie"؛ أي علم الدلائل، وهي كلمة مشتقة من اليونانية "Séméion" بمعنى دليل. ولعله سيمكننا من أن نعرف مما تتكون الدلائل والقوانين التي تسيرها. ولما كان هذا العلم غير موجود بعد، فإنّه لا يمكن أن نتنبأ بما سيكون، ولكن، يحق له أن يوجد، ومكانه محدد سلفا"[32]؛ إذا سوسير بهذا قد تنبأ بظهور علم عام يدرس حياة العلامات لغوية كانت أو غير لغوية ومكان هذا العلم محدد سلفا. لكن مع هذا أقرّ سوسير بأنّ هذا العلم الذي لم يظهر بعد في نظره؛ أي السيميولوجيا باصطلاحه هو علم عام تندرج تحته اللسانيات كفرع ليس إلاّ في قوله:" وليست الألسنية سوى قسم من هذا العلم العام والقوانين التي سيكشف عنها علم الدلائل سيكون تطبيقها على الألسنية ممكنا، وستجد الألسنية نفسها ملحقة بميدان محدد المعالم مضبوط ضمن مجموع الظواهر البشرية"؛ وهذا باعتبار العلامة، فدي سوسير في دراساته اللّسانية اهتم بالعلامة اللّغوية، فحسب، بينما السيميائية علم عام للعلامات، فهو لا يستثني من مجال اهتماماته العلامات غير اللّغوية؛ من هنا اعتبر سوسير أنّ اللّسانيات الجزء والسيميائيات الكلّ، ليأتي رولان بارث (R.Barthes) برأي مناقض تماما لدي سوسير معتبرا أنّ اللّسان أهم هذه العناصر التواصلية والتبليغية؛ وهو في ذلك يتفق مع دي سوسير لكن يكمن محلّ الخلاف في أن تكون اللّسانيات جزء من السيميائيات

لأنّ العلامة اللّغوية تحتاج إلى اللّغة التي تعمل على تفسيرها وتحديدها حيث "أنّ كلّ نظام دلائلي يمتزج باللّغة"[33] فلا تعبّر العلامة غير اللّغوية عن نفسها إلاّ باللّغة؛ لذا يقرّ ويؤكد على أنّه "ليست اللّسانيات جزءا، ولو مفضلا، من علم الأدلة العام. ولكنّ الجزء هو علم الأدلة، باعتباره، فرعا من اللّسانيات"[34]. يهمنا من كلّ هذا أنّ العلامة مهمة في حياة الفرد؛ لذا يستوجب دراستها وتحليلها والعمل على وضعها في مقاييسها العلمية والثقافية والتواصلية، وهي كانت تسير جنبا إلى جنب مع الإنسان وتخطو معه خطوات ثابتة ومتحركة في الآن نفسه، فهي أداة تواصلية؛ لذا هي ثابتة، كما أنّها متطورة تمسّ جوانب متعددة في حياة الفرد من التكنولوجيا (الحاسب بمصطلح عبد الرحمان الحاج صالح، والجوال، والتلفزة، والسينما...)؛ لذا هي متحركة بالضرورة مع مستجدات العصر الذي تتوقف عنده.

إنّ العلم الذي ظنّ فردينان دي سوسير لم يولد بعد وهو Sémiologie باصطلاحه، كان شارل سندرس بورس (C .S. Piers) في الوجه الآخر من الكرة الأرضية يعمل على بناء نظرية علمية تدرس حياة العلامات لغوية كانت أو غير لغوية، في الفترة الزمنية نفسها تقريبا، تحت تسمية Sémiotique يقول فرنسوا بيرالدي أنّ :"بورس قد أحدث مثل فريد، في سجل آخر، لكن في [الفترة الزمنية نفسها] تقريبا، نظرية قادرة على إجراء قطيعة معرفية حقيقية في سيرورة تكون علم حقيقي للأدلة، يمكن أن نسميه . ولم لا . بالسيميوطيقا"[35]. إذا ظهرت وتأسست السيميائية على يدي كلّ من اللّغوي السويسري فردينان دي سوسير والفيلسوف المنطقي الأمريكي شارل سندرس بورس هذا حسب بعض العلماء والدارسين؛ الذين ذهبوا إلى أنّ الفرق بين سيميولوجية سوسير وسيميوطيقا بورس تتمثل في نقاط محددة أهمها العلامة التي نجدها عند سوسير ثنائية ذات علاقة لغوية لا أكثر إضافة إلى أنّ العلاقة بين طرفي العلامة (الدال والمدلول) تكون اعتباطية؛ لذا فمجال العلامة السوسيرية محدد وضيق لأنّه يستثني كلّ من الرمز والإشارة... كما أضاف في حديثه عن العلم الجديد بأنّه جزء من علم النفس العام في حين ذهب بورس إلى أنّ العلامة لا تكون إلاّ ثلاثية لأنّه لم يقص من العلامة العالم الخارجي إنّما رأى ضرورة وجوده في بناء العلامة عموما (لغوية وغير لغوية)؛ فكان توجهه هذا مبني على أسس رياضية وكلّ جزء من أجزاء العلامة يتفرع بالضرورة إلى ثلاثية أكيدة. لذا فمفهوم العلامة لدى بورس متسع ليشمل كلّ أنواع العلامات، فهي بذلك تعتبر جزء من علم المنطق. لكن لو نتريث قليلا ونمعن النظر نجد أنّ سوسير تنبأ لا أكثر بظهور هذا العلم. أما أن نقول أنّه أسس لهذا العلم وحدد معالمه، فهذا لا يمت بصلة إلى الحقيقة اليقينية إنّما جاءت أعمال تلامذته فيما بعد إلى التمعن في أفكاره والعمل على بلورتها من أمثال إيريك بويسنس (E. Buysenss)، وجون لويس بريتو (L . J. Prièto)، وأندري مارتنيه (A .Martient)، وجورج مونان (G. Mounin). فعلى الرغم من أنّ أراء بورس على حدة غير كافية لبناء تصور كامل ونظرية ناضجة إلاّ بفعل أتباعه وتلامذته الذين ساندوا تلك الأفكار وعملوا على بلورتها إلاّ أنّ أفكار بورس كانت سابقة وأنضج وكذلك أوسع من تلك التنبؤات التي تنبأ بها سوسير يقول محمد السرغيني: "[بورس]... لم ينشر له من الكتب وهو حي غير كتابين، أحدهما في علم التنجيم، والأخر عن المنطق، وربما لهذا السبب بقي رأيه في

العلامة مجهولا رغم خصوبته ودقته بالقياس إلى رأي سوسير عنها. وفي أمريكا المعاصرة، أخذ [بورس] يسترد اعتباره في السيميوطيقا خاصة"[36]؛ لذا فالمؤسس الحقيقي للسيميوطيقا هو شارل سندرس بورس.

إذا سلّمنا بأنّ السيميائيات علم يدرس العلامات وأنّ الإنسان علامة وكلّ ما يحيط به عبارة عن علامة حسب بورس؛ فإنّنا نصل إلى القول إنّ السيميائيات حقل معرفي نقدي معاصر واسع الاطلاع؛ حيث لم يكتف بالنّظر في الإشارات أو العلامات اللّغوية بل تجاوزتها إلى نطاق واسع، فبعد ما كان الدّليل عند دي سوسير ثنائيا، أصبح مع شارل سندرس بورس والّذين جاؤوا بعده ثلاثيا؛ لكون هؤلاء لم يقصوا المرجع (بارث) أو المؤول (بورس) من مجال اهتمامهم. لكن لا يمكن إنكار أنّ السيميائيات اتكأت على اللّسانيات خاصة البنوية[37] في أعمالها، وذلك بتطويع تلك الإجراءات العلمية بما يتناسب مع السّيميائيات من تلك الإجراءات الّتي استعارتها السّيميائية من البنوية[38].

إحالات البحث

1 . عبد الواحد المرابط، السيمياء العامة وسيمياء الأدب من أجل تصور شامل، ص31.

2 . جالينوس، كتاب جالينوس في فرق الطب للمتعلمين، نقل أبي زيد حنين بن إسحاق العبادي المتطلب، تحق: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية للكتاب، ط1، 1978، ص29.

3 . المصدر نفسه، ص75. ينظر كذلك: إيريك بويسنس، السيميولوجيا والتواصل، تر: جواد بنيس، مجموعة البحث في البلاغة والأسلوبية، ط1، 2005، ص3.

4 . يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، دط، مصر: 1936، ص84.

5 . مناقشة قضية معينة والهدف من ذلك هو الوصول إلى المعرفة الحقيقية؛ لذا هم يعتمدون في ذلك مبادئ معينة تسهل لهم اكتشاف المعرفة المطلقة، وكلّها تعتمد على أساس ومبدأ خاص في الفلسفة اليونانية، وهو مبدأ السببية يقول إيكو:" إنّ العقلانية الإغريقية من أفلاطون إلى أرسطو وكلّ من يدور في فلكهما، قد انبنت على مبدأ مفاده أنّ المعرفة هي إمساك بالسبب". ينظر: أمبريتو إيكو، التأويل بين السيميائية والتفكيكية، ير: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء: 2000، ص25. وهذه المبادئ التي يستندون عليها هي:

مبدأ الهوية (أ = أ)

مبدأ عدم التناقض: يستحيل أن يكون الشيء (أ) ولا (أ) في الوقت نفسه.

مبدأ الثالث المرفوع: (أ) إما صحيحة أم خاطئة. ينظر: إيكو، التأويل بين السيميائية والتفكيكية، ص26.

نخلص إلى أنّ كلّ الأمور والموجودات والعناصر المحيطة بالإنسان كانت نتيجة لسبب معين مثل "الدخان سببه النار".

6 . روبن هنري روبنز، موجز تاريخ علم اللّغة في الغرب، تر: أحمد عوض، عالم المعرفة، دط، 1997، ص37. وذلك في قوله:" كلّ الأشياء يمكن إدراكها من خلال الدراسة الجدليّة". وهذا ما عرف فيما بعد عند "هيجل" في الفلسفة الوجودية على أنّها نمو جدليّ للعقل، وهذا الأخير عنده يوصل دوما إلى تركيبات جديدة ابتداءً من مفهومي القضية ونقيض القضية". ينظر: بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوربا، تر: عزت قرني، عالم المعرفة، 1992، العدد 165، ص29.

7 . ينظر كلّ من: إيريك بويسنس، السيميولوجيا والتواصل، ص3. وأحمد يوسف، السيميائيات الواصفة، ص66.

8 . رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، إفريقيا الشرق، ص18.

9 . يعدّ الجدل في نظر أفلاطون علم يقابل ما نسميه حاليا بنظرية المعرفة؛ فهو بذلك يشمل على المنطق والميتافيزيقيا معا. ينظر: يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص84.

10 . يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، ص85.

11 . فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر/ لبنان: 2010، ص182.

12 . جوزيف كورتيس وآخرون، السيميائية قواعدها وأصولها، تر: رشيد بن مالك، مراجعة: عز الدين المناصرة، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر: 2002، ص26. لقد قدّم هؤلاء تصورا ناضجا عن العلامة والذي ما يزال يحتفظ بقيمته إلى الوقت الحالي، كما أنّه كان ثلاثيا يتضمن كلّ من التعبير أو الجانب المادي من العلامة، والمحتوى أو ما يعبّر عنه، وله شكل غير ملموس، والمرجع أو الشيء الذي تحيل إليه العلامة وله شكل ملموس. ينظر: إيريك بويسنس، السيميولوجيا والتواصل، ص4.

13 . جوزيف كورتيس وآخرون، السيميائية قواعدها وأصولها، ص27.

14 . سعيد بنكراد، السيميائيات النشأة والموضوع، مجلة عالم الفكر، ص14.

15 . أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة، منشورات الاختلاف والمركز الثقافي العربي والدار العربية للعلوم، ط1، الجزائر/ المغرب/ لبنان: 2005، ص123.

16 . عبد الواحد المرابط، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ص29.

17 . أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة، ص25.

18 . أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة، ص25.

19 . جوزيف كورتيس وآخرون، السيميائية قواعدها وأصولها، ص22.

20 . أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة، ص26.

21 . عبد الواحد المرابط، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ص30.

22 . عبد الواحد المرابط، السيمياء العامة وسيمياء الأدب، ص30.

23 . مازن الوعر، " صلة التراث اللّغوي العربي باللسانيات"، مجلة التراث العربي، دمشق، ع48، 1992، ص10.

24 . دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، تر: طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت:2008، ص ص 78 . 79. مع العلم أنّ إيكو (U . Eco) رأى أنّهم فعلوا ذلك ضمن نموذج ثلاثي وليس نموذج ثنائي كما فعل دي سوسير. ينظر: دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ص79.

25 . André Martent , élément de linguistique générale, Armand colin, 4éd, 2 tirages, p8

26 . جون لويس كالفي، علم الاجتماع اللّغوي، تر: محمد يحياتن، دار القصبة، دط، ص78.

27 . فردينان دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص37.

28 . دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص 29. لنصل إلى القول إنّ هذه المصطلحات (اللسان/ اللّغة/ الكلام) تحكم بينها علاقتي التباين والاختلاف، وهما مصطلحان يحملان دلالة واضحة هي الاختلاف؛ أي من الخطأ إطلاق مصطلح مكان آخر، مما يعني أنّ اللّسان (Langue) ليس المصطلح نفسه اللّغة (Langage) على سبيل المثال، هذا ما يقصد به التباين والاختلاف، وهذا لكون اللّسان نجده لدى الجماعة اللّغوية بينما اللّغة تمارس في هذه الجماعة بمعنى أنّ اللّسان اشتراك جماعي في حين اللّغة ممارسة فردية بتطبيق فكرة العدول (الانزياح)؛ إلى جانب هذا يؤكد سوسير على أنّ اللسان شكل وليس مادة يقول ماري نوال غاري بريور :" اللسان يدرك بوصفه تراتبية من البنى الشكلية التي تربط بين جوهر الأصوات وجوهر الأفكار ذلك في التمييز بين الشكل وجوهر المادة"، وبما أنّ اللسان مشترك لدى الجماعة اللّغوية فهو بذلك بمثابة صورة (Forme) وليس مادة (Substance). ينظر: ماري نوال غاري بريور، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، تر: عبد القادر فهيم الشيباني، ط1، الجزائر: 2007، ص100. كما أنّ اللّسان له طابع موضوعي لأنّه ذهني محض، فهو مخزون الأفكار الموجودة على مستوى الذهن بينما اللّغة ذاتية تحتاج إلى اللّسان

والكلام كي تتجسد بفعل أنّ الكلام هو التأدية الفردية للغة في إطار الجماعة اللّغوية الواحدة؛ إذ لا تتم في ظلّ غياب أحدهما إضافة إلى كون التأثير النفسي يساعد هذه العملية وهو ما يعرف بالرابطة النفسية؛ أي الإنسان عند استعماله للغة لا يمكن البتة إقصاء الجانب النفسي منه، هو جانب مهم لإتمام عملية الكلام والتواصل. كما يرى أحمد مومن أنّه من الضروري التفريق بين اللّسان والكلام، وذلك لتداخل المصطلحات والمفاهيم التي جاء بها دي سوسير، " وقد أدت هذه النظرة السوسيرية بالمدارس اللّسانية الأوربية إلى تجاهل أو عدم التركيز ليس على التركيب فحسب بل على العلاقات الأفقية الترابطية أيضا. وهكذا فإنّ التميّز بين [اللّسان] والكلام له أهمية كبيرة في اللسانيات". أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، الجزائر: 2002، ص125.

29 . دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص208.

30 . أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص122. كما نجد أندري مارتنيه (André Martent) يعرفها بقوله: "اللّسانيات دراسة علمية للسان البشري". ينظر: . André Martent , élément de linguistique générale, p1

31 . دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص110.

32 . دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، ص37.

33 . Roland Barthes , élément de sémiologie, IN Communication N°4, le seuil paris1966, p28.

34 . . Roland Barthes , élément de sémiologie, p p91 -134

35 . رولان بارث، مبادئ في علم الأدلة، تع: محمد البكري، دط، الدار العربية: 1986، ص ص 15. 16.

36 . محمد السرغيني، محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء: 1987، ص58. وينظر: إيريك بويسنس، السيميولوجيا والتواصل، تر: جواد بنيس، مجموعة البحث في البلاغة والأسلوبية، ط1، 2005، ص 4 . 5.

37 . إنّ دراسة المدلول والعملية التأويلية استدعت التخلي عن النموذج البنوي أو على الأقل تعديله حسب ما يتطلب في الدراسة الدلالية والتّداولية وكذا السيميائية. ينظر: أمبرتو إيكو، العلامة . تحليل المفهوم وتاريخه .، ص151. . بتصرف .

38 . قام البنويون في دراستهم للغة بالتركيز على ذلك الكم من العبارات التي تُطرح لدى الفرد وما عليه إلاّ اختيار ما يحتاجه؛ وذلك في ظل ما يعرف بالمدونة (Courps)؛ حيث اعتمد البنويون على هذه الأخيرة كغرض واحد ووحيد لوصف اللّغة، ولم يعيروا أي اهتمام للنشاط الإبداعي عند المتكلم. والبنية حقيقة في منظور دي سوسير عبّر عنها بمصطلح "Système" ومقابله العربي هو "النظام" وهي الترجمة الحرفية في حين نجد هذا الأخير لدى بعض اللّغويين بمصطلح نسق، وهي ترجمة المعنى (في حين لم يستعمل سوسير مصطلح بنية إلاّ ثلاث مرات، ولم يقصد مفهومها العلمي الحالي). إذن مصطلح البنوية بإضافة الياء الصناعية عند نحاة العرب أو النزعة العلمية لدى عبد الملك مرتاض "يّة" الدالة على المذهبية، وعبّر اللّغويون العرب على مصطلح (Structuralisme) بعدّة مصطلحات يختلف بناؤها من لغوي لآخر. فعبده الراجحي يستعمل مصطلح البنوية، في حين منذر عياشي (تونس) يصطلح عليه بـ "المنظوماتية". أما أحمد عوض (موجز تاريخ علم اللّغة في الغرب) وعز الدين مجدوب (المنوال النحوي) يطلقان عليه مصطلح "النظامية" إلى جانب هذا المصطلح يستخدم أحمد عوض مصطلح "البنائيّة" للدلالة على المصطلح نفسه، وذلك في قول هنري روبنز:" لكن لأكثر آثار نظرية دي سوسير البنائية للغة المباشرة، ومن أهملها من الناحية التاريخية كان في ميدان الفنلجيا".(روبن هنري روبنز، موجز تاريخ علم اللّغة في الغرب، ص). لكن نجد عبد الرحمان الحاج صالح يفضل مصطلح البنوية على البنيوية ذلك نسبة إلى "بنية"، ويتحدد ذلك في تعريف ابن منظور:" البنية والبنية ما بنيته، وهو البِنى والبُنى... يقال بنية وهو مثل رشوةٍ ورشًا كأنّ البنية الهيئة التي بُنِيَ عليها المشية والرِّكبة. والبُنى بالضم مقصور، مثل البِنى يقال: بُنية وبِنى، بِنية وبِنًى، بكسر الباء مقصور، مثل جزية وجزى. وفلان صحيح البِنية أي الفطرة وأبنيت الرجل أعطيته بناءً وما يبتنى به داره"(ابن منظور، لسان العرب، تح: علي النجار، ص14)، ولقد صرّح الحاج صالح أنّه في اعتماده لهذا المصطلح اتبع يونس بن حبيب حين قال في ظبية:

ظبوى، وهو أخف من ظبي.(عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في علم اللسان، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية، دط، الجزائر: 2007، ص62). ومن هنا فإنّ بنوي أخف من بنيوي.

قائمة المصادر والمراجع

1. أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، دط، الجزائر: 2002.
2. أحمد يوسف، السيميائيات الواصفة، منشورات الاختلاف والمركز الثقافي العربي والدار العربية للعلوم، ط1، الجزائر/ المغرب/ لبنان: 2005.
3. أمبريتو إيكو، التأويل بين السيميائية والتفكيكية، ير: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء: 2000.
4. إيريك بويسنس، السيميولوجيا والتواصل، تر: جواد بنيس، مجموعة البحث في البلاغة والأسلوبية، ط1، 2005.
5. بوشنسكي، الفلسفة المعاصرة في أوربا، تر: عزت قرني، عالم المعرفة، 1992، العدد 165.
6. جالينوس، كتاب جالينوس في فرق الطب للمتعلمين، نقل أبي زيد حنين بن إسحاق العبادي المتطلب، تحق: محمد سليم سالم، الهيئة المصرية للكتاب، ط1، 1978.
7. جوزيف كورتيس وآخرون، السيميائية قواعدها وأصولها، تر: رشيد بن مالك، مراجعة: عز الدين المناصرة، منشورات الاختلاف، ط1، الجزائر: 2002،
8. جون لويس كالفي، علم الاجتماع اللّغوي، تر: محمد يحياتن، دار القصبة، دط، ص78.
9. دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، تر: طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت:2008.
10. روبن هنري روبنز، موجز تاريخ علم اللّغة في الغرب، تر: أحمد عوض، عالم المعرفة، دط، 1997.
11. رولان بارث، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، إفريقيا الشرق.
12. رولان بارث، مبادئ في علم الأدلة، تع: محمد البكري، دط، الدار العربية: 1986.
13. فيصل الأحمر، معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر/ لبنان: 2010.
14. ماري نوال غاري بريور، المصطلحات المفاتيح في اللسانيات، تر: عبد القادر فهيم الشيباني، ط1، الجزائر: 2007.
15. مازن الوعر، " صلة التراث اللّغوي العربي باللسانيات"، مجلة التراث العربي، دمشق، ع48، 1992.
16. محمد السرغيني، محاضرات في السيميولوجيا، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، الدار البيضاء: 1987.
17. يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، دط، مصر: 1936

18. André Martent , élément de linguistique générale, Armand colin, 4éd, 2 tirages.
19. Roland Barthes , élément de sémiologie, IN Communication N°4, le seuil paris1966.